المدرس النموذج في الفكر التربوي لدى علماء الغرب الإسلامي
– ابن أبي زيد القيرواني أنموذجاً –

د. عبد اللطيف تلوان

أستاذ بالكلية المتعددة التخصصات بالناظور

جامعة محمد الأول/ وجدة/ المغرب

The Ideal Teacher in the Educational Ideology of the Scholars in the Western Islamic World
Ibm Abi Zaid Al-Kayrawani As an Example

Dr. Abdul Lateef Talwan

The Multi-Specializations College/ University of Muhammad I/ Al-Nadhoor/ Wajda/ Morocco

Abstract

The researcher in the Arabic Heritage finds many educational examples some of which are related to one of the geniuses in the Islamic history whose work still alive.

يجد الباحث في التراث العربي نفائس ونوادر تربوية ترغمه على ضرورة تقصيها والتماس آثارها، ولاسيما إذا تعلق الأمر بنابغة من النوابغ التاريخية الذي لا يزال عطاؤه التربوي تعتني به المعاهد والجامعات في مختلف بقاع المعمور.

فكان هذا حافزا لي للبحث في تراث علماء الغرب الإسلامي؛ لبيان التصور الذي يضعه هؤلاء للمدرس النموذج، فانصب اختياري على شخصية ابن أبي زيد القيرواني؛ لأنه إسوة حسنة في تكوينه المعرفي وفي عطائه البيداغوجي، فهو خرِّيج مدرسةِ القيروان، الذي اضطلع بمهمة الريادة التعليمية والتربوية بها، حتى صارت بفضله القيروانُ قبلةً لكل عالم وكل مجتهد يبتغي تفوقا وموضع قدم في سماء الأعلام.

ووسمت بحثي بـ: "**المدرس النموذج في الفكر التربوي لدى علماء الغرب الإسلامي:– ابن أبي زيد القيرواني أنموذجا** –"

وتتجلى أهمية هذا البحث في كونه يسعى إلى تَجْلِية هذه التجربة التربوية الفريدة تصورا وتصديقا؛ كي نستلهم منها ما يفيدنا تربويا في واقعنا المعاصر، ونطورها وفق الوسائل الديداكتيكية الحديثة، وما تسمح به المنظومات التربوية المعاصرة.

إذاً؛ يطرح البحث إشكالية تصور ابن أبي زيد القيرواني لأخلاقيات المدرس النموذج من خلال تراثه المطبوع، وتراث بعض المترجمين له.

وفي سبيل الإجابة عن هذه الإشكالية اعتمدت منهجا يقوم على الوصف والتحليل؛ قصد تحرير خطة تتوزع – بعد المقدمة – إلى مبحثين اثنين وخاتمة، فأما المبحث الأول فأشرت فيه إلى جملة من المؤثرات التاريخية والفكرية التي شكلت شخصية ابن أبي زيد البيداغوجية، والمبحث الثاني تطرقت فيه إلى ذكر أهم الصفات التي يتصورها ابن أبي زيد في المدرس سواء كانت ذاتيةً أو متعديةً إلى غيره. والخاتمة ذكرت أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وبعض التوصيات والآفاق التربوية المنبثقة عنه.

المبحث الأول: المؤثرات التاريخية والفكرية المسهمة في البناء المعرفي لشخصية ابن أبي زيد القيرواني.

عُرف ابن أبي زيد القيرواني قامةً علميةً وتربوية، ذائعَ الصيت، كثيرَ القراءة والعطاء العلمي في القرن الرابع الهجري بإفريقية رغم سيطرة الحكم العُبَيْدي عليها.

وقد حفل بترجمات مشرقة دلت على فضله وعظيم بصمته في الحياة العلمية والأخلاقية بالقيروان بل في العالم الإسلامي مذ ذلك التاريخ وإلى اليوم. يقول القاضي عياض (ت544هـ): "كان أبو محمد رحمه الله، إمام المالكية في وقته، وقدوتهم، وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله، وكان واسع العلم كثير الحفظ والرواية. وكتبه تشهد له بذلك. فصيح القلم ذا بيان ومعرفة بما يقوله، ذابّاً عن

مذهب مالك، قائماً بالحجة عليه، بصيراً بالرد على أهل الأهواء. يقول الشعر، ويجيده، ويجمع الى ذلك صلاحاً تاماً، وورعاً وعفة. وحاز رئاسة الدين والدنيا. وإليه كانت الرحلة من الأقطار، ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه. وهو الذي لخص المذهب، وضم كسره، وذبّ عنه، وملأت البلاد تواليفه. عارض كثير من الناس أكثرها، فلم يبلغوا مداه، مع فضل السبق، وصعوبة المبتدأ. وعرف قدره الأكابر. قال الشيرازي: وكان يعرف بمالك الصغير".[1]

وعند افتتاح ترجمته في "سير أعلام النبلاء"، قال الذهبي (ت748هـ): " الإمام العلامة القدوة الفقيه، عالم أهل المغرب، أبو محمد، عبد الله بن أبي زيد، القيرواني المالكي، ويقال له: مالك الصغير. وكان أحد من برز في العلم والعمل"[2]. وقال عنه مخلوف (ت1360هـ) ممتدحا: "الفقيه النظار الحافظ الحجة إمام المالكية في وقته".[3]

عاش – رحمه الله– ستا وسبعين سنة، بحيث ولد بالقيروان سنة 310هـ وتوفي بها سنة 386هـ على القول الراجح.[4]

ومما لا شك فيه أن الثناء الكبير والمدح العظيم الذي أُوتيه ابن أبي زيد القيرواني ما بلغه إلا بفضل عطاء المدرسة التربوية القيروانية التي أفاد منها، والتي سيُفيد في إطارها تلامذتَه الوافدين عليه من كل البقاع الإسلامية.

لذلك؛ أحببت أن أشير في هذا المبحث إلى أهم المؤثرات التاريخية والفكرية التي أسهمت في تكوين الشخصية العلمية والتربوية لابن أبي زيد القيرواني، في إطار مطلبين اثنين، على النحو الآتي:

المطلب الأول المؤثرات التاريخية المُسهمة في البناء المعرفي لشخصية ابن أبي زيد القيرواني.

عاش ابن أبي زيد القيرواني في زمن استولى فيه الفاطميون الشيعة على السلطة في بلاد افريقية؛ حيث حكموها بأنفسهم طيلة ستين سنة، وولوا عليها بعد انتقالهم إلى مصر عمالهم من بني زيري الصنهاجيين.[5]

ولقد ترك هذا الحدث التاريخي بصمة قوية في شخصية ابن أبي زيد، الذي تأثر باستشهاد أغلب شيوخه[6] لما ثاروا على الحكم العبيدي، فجعله يسنزيد في الطلب للمنافحة عن ثوابت البلاد التي ما فتئت تتلاشى بسبب إرغام السلطة الفاطمية العلماءَ والعامة على اعتناق المذهب الشيعي. يقول القاضي عياض: "كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد، في حالة شديدة من الاهتضام والتستر؛ كأنهم ذمة، تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة (...) فمن تكلم أو تحرك قتل، ومثّل به"[7]. ويذكر صاحب "البيان المغرب"، أن الفقيه أبا علي الحسن ابن مفرج (ت309هـ)، والزاهد محمد الشذوني (ت309هـ) ممن قُتل بسبب مخالفتهما مبدأ الشيعة في تفضيل علي بن أبي طالب على باقي الصحابة.[8]

إذاً كانت هذه المؤثرات التاريخية العصيبة دافعا أساسا لابن أبي زيد القيرواني للنفير إلى العلم حماية للبيئة التونسية من الفكر الدخيل عليها، فترأس الكرسي العلمي بها؛ لتخريج العلماء والمدرسين، فنجب على يديه خلق كثير[9]، حملوا شعار الحفاظ على الهوية السُّنية، ونافحوا عن المشروع الفكري المحافظ الذي دعا إليه ابن أبي زيد ومن قبله أساتذته.

1- القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح: محمد بن شريفة وآخرون، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط1، د.ت، 216/6. وينظر: الشرازي في طبقات الفقهاء، هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور، تح: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، ط1/1970، ص: 160.

2- الذهبي، سير أعلام النبلاء، دار الحديث- القاهرة، ط: 1427هـ/2006م، 490/12.

3- مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1/ 1424 هـ - 2003 م، 143/1.

4- ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، 221/6. وابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، 428/1. و مخلوف: شجرة النور، 143/1- 144.

5- ينظر: ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط1983/3م، 158/1 إلى 188.

6- من شيوخ ابن أبي زيد القيرواني الذين استشهدوا على يد العبيديين سنة (333هـ): أبو الفضل العباس بن عيسى المَسْي، وأبو سليمان ربيع بن عطاء الله بن نوفل القطان، وأبو بكر بن محمد المعروف بابن اللباد القيرواني، وأبو العرب محمد بن أحمد تميم القيرواني مؤلف طبقات علماء افريقية. [ينظر مخلوف: شجرة النور، 124/1-125].

7- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، 303/5.

8- ينظر: ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، 187/1.

9- من تلامذة ابن أبي زيد القيرواني: ابن مجاهد الطائي (ت 370 هـ)- البراذعي (ت 386 هـ)- ابن الخلاف (ت 391 هـ)- ابن العطار (ت 399 هـ) - ابن الفرضي (ت 403هـ) - الكوري (ت407 هـ) - التجيبي (ت 422 هـ) - القاضي عبد الوهاب البغدادي (ت 422 هـ) - الخولاني (ت 432 هـ)- مكي ابن أبي طالب (ت 437 هـ) - المعافري (ت 439 هـ)- اللبيدي (ت 440 هـ) **[ينظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك 217/6. وابن فرحون: الديباج،**

المطلب الثاني المؤثرات الفكرية المُسهمة في البناء المعرفي لشخصية ابن أبي زيد القيرواني.

هنالك مؤثرات فكرية أسهمت في تشكيل الشخصية العلمية والتربوية لابن أبي زيد القيرواني، يمكن إجمالها في ما يلي:

التدافع الفكري: عرفت الحياة الفكرية زمن ابن أبي زيد القيرواني انتعاشا وقوة بسبب التدافع الفكري مع التيار الشيعي،"فكانت القيروان في هذا العهد القاسي تحتضن حركة فكرية دائبة، وتشهد نشاطا لتركيز مذهب مالك: فهناك إقبال على دراسة الفقه المالكي والتصنيف فيه، وتركز الاهتمام خاصة على المدونة الكبرى للإمام سحنون. وقد كان ممن ألف عليها أبو القاسم عبد الرحمن اللبيدي شيخ عبد الله بن أبي زيد وشملت العناية العلمية كثيرا من فروع المعرفة العقلية والشرعية مثل علوم القرآن والحديث والفقه"[1].

التدرج التربوي:كانت الأولوية التربوية في عصر ابن أبي زيد القيرواني تمنح للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف باعتبارهما مصدرا أولا للتشريع؛ فكان أول ما يبدأ به الصبي حفظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ثم يأخذ علومهما، وبعد ذلك ينتقل إلى تعلم العلوم الأخرى بالتدرج[2]. يقول أحمد بن خليل السكوني (ت557هـ) ملخصا هذه الطريقة: [3]

إنَّ العُلُومَ لَجَمَّـة وأَجَلـــُّهَا	عِلْـمَ الْقُرَانِ وسُنَّةَ المُخْتَارِ
فَاحْفَظْ كِتَابَ الله واحْو عُلُـومَه	فَإِذَا انْتَهَيْتَ فَمِلْ إِلَى الآثَارِ
وَاعْـرِفْ صَحِيحَ رِوَايَةٍ وسَقِيمَهَا	وتَحَـرَّ هَدْيَ السَّادَةِ الأَبْرَارِ
وَعَلَــى الإِمَامِ الأَصْبَحِي فَعَوِّلَن	فَهُو الْعَلِيـمُ بِمَوقِعِ الأَخْبَارِ
وَلْتَحْوِ مِنْ عِلْـمِ الْكَلاَمِ جَوَامِعًا	تَهْدِيـكَ يَوْمَ تَحَيُّرِ النُّظَّارِ
وَاقْفُ الإِمَامَ الأَشْعَـرِيَ تَسِرْ عَلَى	غَرَّاءَ وَاضِحَةَ الصُّوَى لِلسَّارِي
وَالنَّحْــوُ مِنْ شَرْطِ الْعُلُومِ فَإِنَّهُ	لِغَوَامِضِ الأَقْوَالِ كَالمِْسْبَار

وقد أفاد ابن أبي زيد من هذا الترتيب في أخذ العلوم عملا بما جرى به العرف التربوي يومئذ، فكان "أحد الطلبة النابهين، يحفظ القرآن الكريم، ثم يدرس علوم الوسائل، وعلوم المقاصد، متمتعا باستعداد ذهني أهله أن يستفيد من بيئته العلمية استفادة أبرزت نبوغه المبكر، الذي تجلى خاصة في ثمرة عهد شبابه وباكورة عطائه العلمي، وهي رسالته في الفقه المالكي"[4].

كثرة أساتذته مع علو كعبهم في العلم: استفاد ابن أبي زيد القيرواني من تعدد الأساتذة[5] الذين تتلمذ لهم، فطبعوا في شخصيته معارف شتى أهلته لتصدر الدرس الشرعي بالقيروان.

وقد نال إجازات عالية الإسناد من أساتذته، ذكر أسانيدها في مقدمة كتابه "النوادر والزيادات"[6].

ونتيجة لهذه المؤثرات التاريخية والفكرية ترك لنا ابن أبي زيد القيرواني كتبا تُنبئ عن غزارة علمه وسعة اطلاعه[1]. وتعطي إجابة واضحة عن علة كثرة أسفار الطلاب إليه من كل حدب وصوب يطلبون علمَه، وينتهلون من حياضه التربوية، فتزاحم على حِلقه العلمية الأكابر، وتفرقوا في البلاد ينقلون عنه النوادر.

429-428/1. والذهبي: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تح: بشار عوّاد، دار الغرب الإسلامي، ط1/ 2003 م، 647/8. ومخلوف: شجرة النور، 143/1-144] .

1- الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان، الرسالة الفقهية، (قسم الدراسة)، دار الغرب الإسلامي، ط1997/2، ص: 25.

2- ينظر محمد الطاهر ابن عاشور: أليس الصبح بقريب؟ دار السلام بمصر، ودار سحنون بتونس، ط:2007/2م. ص:70 وما بعدها.

3- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، تح: إحسان عباس، السفر الخامس/القسم الثاني، دار الثقافة، بيروت، 1965م. السفر الأول ص: 114.

4- الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان، الرسالة الفقهية، (قسم الدراسة)، ص: 13.

5- من شيوخ ابن أبي زيد القيرواني: **شيوخه من القيروان**: ابن الحدّاد (ت320) - الخولاني (ت 324)- ابن اللّباد (ت333)- المَمْسى (ت 333)- أبو العرب (ت 333)- القطّان (ت 334)- ابن بزار(ت337)- حبيب بن الربيع (ت 339)- التنوخي (ت 343)- العسّال (ت 346)- ابن الحجّام (ت 346)- الإبيّاني (ت 352). **شيوخه المشارقة**: ابن حماد (ت329)- ابن شعبان (ت 355)- الأبهري (ت 375). **[ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، 216/6-217. و ابن فرحون: الديباج 428/1. ومخلوف: شجرة النور 143/1- 144].**

6- ابن أبي زيد القيرواني: النوادر والزيادات، 12/1 إلى 15.

ولعل ما سأذكره في المبحث الموالي سيكشف لنا سر هذا التفوق الباسق لابن أبي زيد؛ لأنه كان بحق مدرسا ناجحا تصورا وتطبيقا.

المبحث الثاني صفات المدرس الناجح عند ابن أبي زيد القيرواني

أشار ابن أبي زيد القيرواني في مقدمتي كتابَيْه "الرسالة الفقهية" و"النوادر والزيادات" بخاصة، وكذا بعض من ترجم لابن أبي زيد إلى جمل من الملاحظ التربوية المتعلقة بالمدرس النموذج في تصوره، والتي يمكن تصنيفها إلى قسمين: قسم يتعلق بصفات المدرس الناجح في ذاته، وقسم يتعلق بصفات المدرس الناجح في عطائه التربوي. وهذا ما سأوضحه في هذا المبحث في إطار مطلبين اثنين، على نحو ما هو آتٍ:

المطلب الأول: صفات المدرس الناجح في ذاته.

يتأهل المدرس في عطائه التربوي عند ابن أبي زيد إذا تحلى بجمل من الصفات الذاتية، يمكن إيجازها في المؤهلات الآتية:

المباحثة والملازمة: المدرس النموذج في تصور ابن أبي زيد ذاك الذي يعتني بالبحث، ويلازم أهل العلم، وفي هذا الشأن يقول: "العلم لا يأتي إلا بالعناية والمباحثة والملازمة، مع هداية الله وتوفيقه، قال أبو الدرداء: العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم".[2]

ولهذا فالمدرس الذي لا يجدد معلوماته، ولا يبحث في دقائق ما يدرسه، ولا يستحضر الإشكالات المحتملة من قبل طلابه، لا يرقى إلى أن يكون مدرسا منتجا، ولا يُورِّث في طلبته مبدأ التطور والتجديد والعناية بالبحث العلمي.

الصبر والمكابدة: وهما صفتان لازمتان لكل مدرس أراد أن يتسمى مدرسا. يقول ابن أبي زيد: "إن طالب العلم يحتاج إلى البكور فيه، واستدامة الصبر على طلبه، وشدة الحرص عليه، وإذا كان الحريص لا يقلع، والمنهوم لا يشبع، والحوادث تحول دون الأمل، فصرف الجهد والهمة إلى ما يتعجل بركته، من التفقه في دين الله، وتتأجل غبطته من العمل به، أولى من الاستكثار من الأسفار بلا تفقه، والتحلي بغير تحقيق".[3]

وما أكثر من يتحلى بغير ما يكتسبه، ويتسمى بغير مسماه، بسبب قلة صبره وعدم استغلال أنفَس الأوقات في طلب العلم الذي يحتاج إلى المكابدة والمصابرة، مع الحرص المستمر الذي لا يتبعه كلل ولا يلحقه ملل، وإن كان يطبعه ويكتنفه التعب.

المزاوجة بين الكتابة والحفظ: وهذا ملمح يشير إليه ابن أبي زيد القيرواني في معرض حديثه عن نشأة التأليف وتطوره في تاريخ الفكر العربي والأسباب الداعية إليه؛ حيث يقول: "إن كانت الكتب في آخر الزمان خزائن العلوم؛ فإن مفاتيح مغالقها الصدور، وقد كان العلم في الصدر الأول خزائنه الصدور ولم تكن كتبٌ، وصار في آخر الزمان أكثره في الكتب وأقله في الصدور، وكثرت الكتب بالشرح والتأليد والتفسير لما قال أهل المدينة وكثر التقصير، وإن كان متقدمو أهل المدينة أقل تكلفا من غيرهم، وكانوا أعلم الناس بالأصول من الأحكام والسنن، وما تكلم فيه الصحابة ومن بعدهم من التأويل، وما اختلفوا من الحوادث، وإنما ولفت الكتب في القرن الثالث".[4]

1- له كتاب" النوادر والزيادات على المدونة"، مشهور. أزيد من مائة جزء. وكتاب "مختصر المدونة"، مشهور على كتابيه هذين المعوَّل بالمغرب في التفقه. وكتاب "الاقتداء بأهل السنّة"، وكتاب" الذبّ عن مذهب مالك"، وكتاب" الرسالة"، مشهور، وكتاب "التنبيه على القول في أولاد المرتدين ومسألة الحبس على ولد الأعيان"، وكتاب "تفسير أوقات الصلوات"، وكتاب "الثقة بالله، والتوكل على الله سبحانه". وكتاب "المعرفة واليقين". وكتاب "المضمون من الرزق"، وكتاب "المناسك"، ورسالة "فيمن تأخذه عند قراءة القرآن والذكر حركة"، وكتاب "رد المسائل"، وكتاب "حماية عرض المؤمن"، وكتاب "البيان عن إعجاز القرآن"، وكتاب "الوساوس"، ورسالة "إعطاء القرابة من الزكاة"، ورسالة" النهي عن الجدال"، ورسالة في" الرد على القدرية"، ومناقضة رسالة البغدادي المعتزلي"، وكتاب "الاستظهار في الردّ على الفكرية"، وكتاب "كشف التلبيس في مثله"، ورسالة "الموعظة والنصيحة"، ورسالة" طلب العلم"، وكتاب" فضل قيام رمضان"، ورسالة" الموعظة الحسنة لأهل الصدق"، ورسالة إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن"، ورسالة في أصول التوحيد". **[ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، 6/217- 218. والذهبي: سير أعلام النبلاء، 12/491. وإسماعيل الباباني البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية اسطانبول 1951، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان، 1/447-448.]**

2- ابن أبي زيد القيرواني: النَّوادر والزِّيادات على مَا في المدَوَّنة من غيرها من الأمهاتِ، تح: عبد الفتّاح محمد الحلو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1/ 1999م، 1/5.

3- ابن أبي زيد القيرواني: النوادر والزيادات، 1/7.

4- نفسه، 1/8.

تتلخص الإشارة التربوية المستنبطة من هذا النص في أنَّ المدرس النموذج ذاك الذي يجمع بين التخطيط الذهني والكتابي للدرس. فالذي يعتمد على الكتابة ولا يتجاوزُها إلى حفظ مفاتيح العلوم لا تتشكل لديه الشخصية العلميةُ المطلوب توفرها لدى المدرس الناجح. وقد يتعرض للاعتذار عن إلقاء درسِه متى نسي كرَّاستَه أو حدث عطب تقني لمورده الرقمي.

الجمع بين العلم والأدب: فلا بد للمدرس أن يتحلى بهما ليسمو درسه ويستمر عطاؤه ولقد كان ابن أبي زيد كذلك. يقول محمد الفاضل بن عاشور: "قد زكى سمعته الذائعة ما زان سلوكه الشخصي من الزهد والورع مع العقل الراجح والأدب البارع، فكانت قوة عارضته وجزالة رأيه مع ما أوتي من فصاحة اللسانين الشفهي والكتابي ممكنة له مقدرة في خدمة الفقه تدريسا وتأليف يعز أن تتاح لغيره حتى عرف في عصره بشيخ المذهب ولقب مالكا الصغير"[1].

و**بالجملة**؛ فإن التصور الذي يضعه ابن أبي زيد القيرواني للمدرس النموذج نظرا وتطبيقا، يمكن أن يحتذي به المدرسون في العالم العربي ولاسيما في مرحلة التعليم العالي؛ لأن مكمن القوة في العطاء التربوي تتوقف على ذاتية المدرس بشكل أساس، ففاقد الشيء لا يعطيه. ولهذا أحسن القاضي عياض الوصف البيداغوجي لتلاميذ ابن أبي زيد القيرواني لما قال: "وإليه كانت الرحلة من الأقطار، و**نجب أصحابه**، وكثر الآخذون عنه".[2]

فلا شك أن المدرس القوي الذي يتمتع بصفات ذاتية متمثلة في الصبر والمكابدة، والتواصل العلمي مع أهل التخصص، والتخطيط الذهني والكتابي، ومتابعة الجديد، والبحث عن حل الإشكلات، والحرص على طلب العلم والاستزادة منه، وتزيين كل ذلك بالأدب والحلم، هو الذي يؤثر في الحياة التربوية ويترك أثرا محمودا يذكر به مع تعاقب الأجيال، ويُخرِّج جيلا من الطلاب الأقوياء الذين يقتبسون منه تلك الصفات، وتسلب طباعُهم طباعَه. تلك كانت أخبار من تتلمذ لابن أبي زيد ومن تتلمذ لهم.

المطلب الثاني: صفات المدرس الناجح في عطائه التربوي.

يُتمِّم ابن أبي زيد الفائدة، ويشير في ثنايا بعض كلامه إلى ما ينبغي أن يصرف إليه المدرسُ الجهدَ حتى يكون عطاؤه التربوي ناجحا وباصما، ومن أهم تلك الصفات أذكر ما يلي:

– **الإخلاص في التعليم:** إذا كان الإخلاص مطلوبا في كل شيء فإنه في التعليم يتأكد؛ لأن المدرس الذي لا يخلص في العمل التربوي يُنتج جيلا مغشوشَ البناء المعرفي، وقد يتسرب هذا الخلق إلى فئة عريضة من تلامذته فيكونَ قدوتَهم في عدم الإخلاص وتأنيب الضمير. ولهذا فالمخلص هو الذي يرتجي بتعليمه وتربيته وجه الله تعالى وثوابا من عنده، وهو الدافع الذي جعل ابن أبي زيد القيرواني يضع كراسة للمؤدب أبي محفوظ مُحرَز بن خلف الصدفي التونسي (ت413هـ)[3] إذ خاطبه بقوله: "فأجبتك إلى ذلك؛ لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علَّم دين الله أو دعا إليه".[4]

– **الإشفاق على المتعلمين:** الرحمة مطلوبة من المدرس تجاه من يعلمه، وهذه صفة أشار إليها ابن أبي زيد في إحدى كتبه التربوية التي لم تصل إلينا، ولكن وصلنا منها قولٌ يرويه عنه عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ): "قال محمد بن أبي زيد في كتابه، الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين[5]: لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً."[6]

1- محمد الفاضل بن عاشور: أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، مكتبة النجاح، تونس، (د.ط. ولا ت) ص: 48.

2- القاضي عياض: ترتيب المدارك، 216/6.

3- وقع خلاف بين الشراح والمترجمين حول الشخصية التي توجه إليها ابن أبي زيد القيرواني بالخطاب في مقدمة الرسالة، هل السبائي أم محرز؟ فأكد الدباغ والتنوخي أنه وجهها إلى محرز نقلا عن أبي عبد الله محمد بن سلامة التونسي، وأبي علي ناصر الدين البجائي حيث قالا: "إنما سأله تأليفها الشيخ المؤدب محرز بن خلف التونسي، وهذا هو الصحيح عندي؛ لأن قول الشيخ أبي محمد: (كما تعلمهم حروف القرآن)، يدل على ذلك لأني لا أعلم أحدا ممن تعرض إلى مناقب أبي إسحاق السبائي ذكر أنه كان مؤدبا". **[الدباغ، والتنوخي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس، (د.ت)، 111/3]**.

4- ابن أبي زيد القيرواني: الرسالة الفقهية، ص: 73.

5- ذهب فؤاد سزكين إلى تخطئة عبد الرحمن بن خلدون في نسبة كتاب "أحكام المتعلمين والمتعلمين" إلى أبي محمد بن أبي زيد القيرواني وأن مؤلفه أحمد بن محمد القابسي (ت403هـ)، ولكن الإشارات التي وقفت عليها من خلال كلامه في مقدمتي كتابيه المطبوعين: "الرسالة" و"النوادر والزيادات"، وما وقفت عليه من التراجم التي ترجمت له، ترجح لدي ما ذهب إليه عبد الرحمن بن خلدون. **[ينظر فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، تعريب محمود حجازي، ط: جامعة الإمام ابن سعود، الرياض، 1403هـ-1983، 173/3/1].**

6- ابن خلدون: المقدمة، ط: دار المصحف بمصر، د.ت، ص: 406.

وترخيصه للمؤدب بضرب الصبي ضربا غير مبرح إذا احتاج إليه، أتى في معرض بيان الحكم الفقهي وليس في سياق الوصف التربوي.

ذلك بأن المترجمين ذكروا له إشفاقا وحنانا على طلابه، وأتوا بقصص واقعية حدثت مع تلامذته؛ لإقامة الحجة على ما ذكروا، تدل على رحمته بتلامذته، وشفقته عليهم، وكريم عطائه لهم، ومقابلة من أساء منهم بالحسنى[1].

ولعمري إن خلق الرحمة أولى صفة ينبغي أن تطبع العملية التعليمية التعلُّمية، فالعنف لا يأتي بخير، بل يكون سببا في الهدر المدرسي، والتأخر المعرفي؛ لما يترك من آثار سلبية في نفسية المتمدرس، تجعلُه يشعر بالخوف، وكراهية الأستاذ، وفي كثير من الحالات تستمر مع المتعلم هذه الآثار السلبية حتى ولو تغير المدرس المعنِّف.

– **التبكير بإيصال المعرفة إلى الولدان** لقول ابن أبي زيد: "اعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه. وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة؛ ليُرَاضُوا عليها، وما عليهم أن تعتقده قلوبهم، وتعمل به جوارحهم"[2].

وزاد توضيح ما قعَّد له بقوله: "فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر"[3]. قال الشارح: "وقد يقال إن حال الصغر يتفاوت وكلما كان أنزل من البلوغ بمدة طويلة كان التعلم فيه أثبت مما كان فوقه مما كان يقرب من البلوغ"[4].

ومثَّل لهذه القاعدة التربوية الشارح بقوله: "كالآنية الجديدة يجعل فيها القطران فلا تزول منها رائحتها إلا بعد تعب ومشقة"[5].

– **التعليم بطرح السؤال:** تصورُ هذه الصفة في المدرس على نحوِ ما كان يفعله ابن أبي زيد؛ فقد "كان رحمه الله تعالى يفتح مجلسه بجواب سؤال السائلين عن غوامض المسائل ودقايقها، وربما قال: حدثتني نفسي أن في هذا المجلس كذا وكذا سؤالا، فأيكم صاحب سؤال كذا؟ فيقول أحد الحاضرين أنا فيجيبه". [6]

ولقد عبر عن هذه القاعدة التربوية في التعليم بقوله: "إن السؤال يفتح العلم. قال ابن شهاب: العلم خزائن ويفتحها السؤال. وقال غيره: السؤال نصف العلم. قال ابن عباس: يحتاج للعلم لسان سؤول، وقلب عقول. وربما قال زيد بن أسلم لبعض من يخلط في سؤاله: اذهب فتعلم تسل، ثم تأتي". [7]

ولهذا حُقَّ أن يقال في حقه: "كان لابن أبي زيد القيرواني أسلوب بيداغوجي ممتاز، فهو يفتتح دروسه بإثارة الأسئلة المتعلقة بالمسائل الدقيقة الغامضة، ويشجع الطلبة على إلقائها، ويذكر هو نفسه ما يتوقعه منها ثم يجيب عنها بما يشفي الغليل"[8].

وهذه صفة في غاية الأهمية؛ لأن إثارة الأسئلة وتشجيع الطلبة على الإجابة عنها أو تحفيزهم للاستماع إلى أجوبتها، يثمر نشاطا في التعلم، ويبعد عن المتعلم الرتابة والملل، ويزيل عنه الكدر.

ولقد جدَّت في زماننا منظومات تربوية تقوم على طرح الإشكاليات وإيراد الفرضيات المحتملة للإجابة عنها، وتحتاج من المدرس نفسا طويلا، وصبرا متواصلا، وعملا متقدما، وتقويما متعقبا. تلك هي الطريقة التي كان يقترب من التعامل بها ابن أبي زيد القيرواني مع طلبته، ويحث المدرسين عليها.

1- ينظر بعضا من تلك القصص عند الدباغ، والتنوخي في: معالم الإيمان، 117/3 وما بعدها.
2- ابن أبي زيد القيرواني: الرسالة الفقهية، ص: 74.
3- المصدر نفسه، ص: 74.
4- علي بن أحمد الصعيدي العدوي: حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني للمنوفي المالكي، ضبطه محمد عبد الله شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1997/1، 48/1-49.
5- العدوي: حاشية العدوي، 45/1.
6- الدباغ، والتنوخي: معالم الإيمان، 116/3.
7- ابن أبي زيد القيرواني: النوادر والزيادات، 9/1.
8- الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان، الرسالة الفقهية، (قسم الدراسة)، ص: 21.

التدرج البيداغوجي: تلك سمة درج عليها الأسلاف فقد كان ديدنهم التدرج في المعارف التي تُعلَّم للطلاب. وفي تجربة ابن أبي زيد أمثلة على هذا الأمر، فهو يقول في شأن الطلاب المبتدئين: "ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم؛ ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكَّن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم"[1]. ويقول مخاطبا المؤدب محرَز بن خلف: "لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن؛ ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته."[2]

وكان هذا النهج سببا في اعتماد تدريس كتابه "الرسالة الفقهية" في المنظومات التربوية شرقا وغربا، ومن زمانه إلى زماننا هذا؛ لكونها "موجهة لمستوى الأطفال المبتدئين في تلقي العلم مراعية لمستواهم الذهني وملكاتهم التي هي طريق التكون"[3].

ولما يأنس المدرس من طلابه تقدما في العلم وقدرة على الاستيعاب والفهم، والتحليل والتركيب، فإنه يتقدم بهم نحو خطوة متطورة. وتطبيق هذه القاعدة التربوية وجدناها عند أبي زيد القيرواني هذه المرة في مقدمة كتابه "النوادر والزيادات" حينما خاطب المتعلم الذي يبتغي الإفادة من كتابه هذا بقوله:" اعلم أن أسعد الناس بهذا الكتاب من تقدمت له عناية، واتسعت له رواية؛ لأنه يشتمل على كثير من اختلاف علماء المالكيين، ولا يسع الاختيار من الاختلاف للمتعلم ولا للمقصر، ومن لم يكن فيه محمل الاختيار للقول لتقصيره فله في اختيار المتعقبين من أصحابنا من نقادهم مقنع". [4]

ويُفهم من هذه القاعدة أن المدرس الناجح هو الذي يتصف بحسن إعمال النقل الديداكتيكي، الذي يستهدف فئة معينة من الطلاب بمراعاة مستوياتهم وقدراتهم المعرفية.

و**يتحصل** من هذا المطلب أن صفات المدرس الناجح في مُخرجاته التربوية عند ابن أبي زيد القيرواني تلك التي يكون مبتدؤها الإخلاص ودعائمها الرحمة والشفقة بالمتعلم، والتحفيز بالسؤال، والتبكير بإيصال المعرفة الخيِّرة إلى صغار الولدان، والتدرج في نقل المعارف إليهم حسب ما تتحمله طاقتهم، وتستوعبه عقولهم، وتطمئن إليه قلوبهم.

الخاتمة

أخلص في متم هذا البحث إلى النتائج الآتية:

- ✓ إن تصور القدامى للمدرس النموذج ينبني على أخلاقيات جليلة، ولذلك لم تكن تمنح هذه المهمة إلا لمن كان كفؤا لها؛
- ✓ إن المدرس يتحمل مسؤولية الحفاظ على ثوابت وطنه، ومقدسات بلاده، من خلال المنافحة والمدافعة الفكرية التي تتأسس على اطلاع واسع، وقدرة على الحوار والإقناع. وقد كان ابن أبي زيد القيرواني مثالا في الوطنية رغم الظروف العصيبة التي حلت ببلده بسبب السيطرة الفاطمية على الحكم والفكر إبان عصره، حتى امتحن كثير من العلماء في ذلك، ومنهم بعض أساتذته الذين قضوا بسبب ثباتهم على المبدأ؛
- ✓ إن ابن أبي زيد القيرواني يمثل المدرس النموذج الذي يمكن أن يحتذي به كل مدرس؛ ولاسيما في أخلاقه وتعامله التربوي؛
- ✓ إن التكوين الذاتي والتخطيط للدرس والاستعداد له، والحرص والمتابعة البحثية بالإضافة إلى أخلاقيات التعامل مع الآخر صفات لا بد أن تتوفر لدى المدرس النموذج عند القدامى؛
- ✓ إن النصوص التي اعتمدتها لاستنطاق الإشارات التربوية لتصوُّر ابن أبي زيد القيرواني للمدرس النموذج، – رغم قلتها – تشكل إطارا مرجعيا للمدرسين في العالم العربي بصفة خاصة؛ لأنه لا يصلح حال التعليم في أوطاننا إلا إذا تشبع المدرسون بمثل هذه الأخلاق التي أوتيها أمثال ابن أبي زيد القيرواني.

1- ابن أبي زيد القيرواني: الرسالة الفقهية، ص: 74.
2- المصدر نفسه، ص: 73.
3- الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان، الرسالة الفقهية، (قسم الدراسة)، ص: 40.
4- ابن أبي زيد القيرواني: النوادر والزيادات، 11/1.

ويفتح هذا البحثُ **آفاقا للبحثِ** في مشاريع تربوية مشاكلة توسع مجال البحث عن صفات المدرس النموذج عند القدامى؛ للإفادة من التجارب الماضية التي تجاوزت حدود النظرية التربوية إلى ميدان التطبيق الفعلي، وتبيَّنَ عطاؤُها المثمر، ونتاجُها المزهر، وفعلُها المؤثر في الحضارة الإنسانية بصفة عامة.

المصادر والمراجع:

1. ابن أبي زيد القيرواني: النَّوادر والزِّيادات على مَا في المدَوَّنة من غيرها من الأُمهاتِ، تح: عبد الفتّاح محمد الحلو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1/ 1999م.
2. ابن أبي زيد القيرواني: الرسالة الفقهية، تح: الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، ط1997/2.
3. ابن خلدون: المقدمة، ط: دار المصحف بمصر، د.ت.
4. ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، تح: إحسان عباس، السفر الخامس/القسم الثاني، دار الثقافة، بيروت، 1965م.
5. ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط1983/3م.
6. ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
7. إسماعيل الباباني البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية اسطانبول 1951، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان.
8. الدباغ، والتنوخي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس، (د.ت).
9. الذهبي: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تح: بشار عوّاد، دار الغرب الإسلامي، ط1/ 2003م.
10. الذهبي، سير أعلام النبلاء، دار الحديث– القاهرة، ط: 1427هـ/2006م.
11. الشرازي في طبقات الفقهاء، هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور، تح: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، ط1970/1.
12. علي بن أحمد الصعيدي العدوي: حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني للمنوفي المالكي، ضبطه محمد عبد الله شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1997/1.
13. فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، تعريب محمود حجازي، ط: جامعة الإمام ابن سعود، الرياض، 1403هـ-1983.
14. القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح: محمد بن شريفة وآخرون، مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب، ط1، د.ت.
15. محمد الطاهر ابن عاشور: أليس الصبح بقريب؟ دار السلام بمصر، ودار سحنون بتونس، ط:2007/2م.
16. محمد الفاضل بن عاشور: أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، مكتبة النجاح، تونس، (د.ط. ولا ت).
17. مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1/ 1424هـ - 2003م.